أبحاث ندوة عمارة المساجد، م١٠، ص ص٥٥-٧٤، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

خصائص التفكير في تصميم الحيز الداخلي للمسجد

نوبي محمد حسن

قسم العمارة، كلية الهندسة

جامعة أسيوط، جمهورية مصر العربية

ملخص البحث: من الطبيعي أن تختلف عملية تصميم أي حيز معماري ذو وظيفة معينة عن أي حيز آخر مختلف عنه في الوظيفة، بل هي تختلف حتى في حالة الحيز الذي له نفس الوظيفة إذا اختلف موقع المبنى مثلاً، ومن هنا فإن عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد تختلف عن أي عملية أخرى. ونظراً لارتباط عملية التصميم المعماري بالفكر والابتكار المنطلقان إلى حدود لا نهائية، فيبدو البحث عن السمات التي يمكن أن يتسم بها الفكر المعماري لعملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد على جانب كبير من الأهمية، لمعرفة ما مدى حدود الانطلاق في الفكر؟ وكذلك ما مدى البساطة أو التعقيد في المشكلة المطروحة على هذه العملية الفكرية؟ وهل هي عملية فكرية ذات اتجاه محدد لاعتبار الوظيفة أولاً أم الشكل؟ ومدى التوافق بين اتجاهات هذا الفكر والظروف البيئية والتقنية المحيطة بالعمل المعماري؟.

لذا كان هذا البحث، والذي يهدف بصفة أساسية إلى توضيح الخصائص التي يتسم بها الفكر المعماري لعملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد بعناصره المختلفة، والتي قد يختلف بها عن أي عملية تصميم أُخرى، لوضعها أمام المعماريين أثناء التعامل مع إشكالية تصميم الحيز الداخلي للمسجد.

ولتحقيق هذا الهدف فقد اعتمد البحث بصورة أساسية على المنهج التحليلي، حيث تم تصنيف هذه الخصائص في أربعة عناصر أساسية هي، التقييد، والبساطة، والوظيفة لا الشكل، والتوافق لا التعارض، ودراسة مدى وإمكانية تطبيقها على العناصر المختلفة للحيز الداخلي للمسجد ومدى توافقها معها كلٌ منها على حسب درجة أهميته.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث، أن عملية التفكير في تصميم الحيز الداخلي للمسجد هي عملية مقيدة بضوابط معينة وغير متروكة لانطلاقة الفكر المعماري، كما أن المشكلة التصميمية التي تتناولها تتسم بالبساطة وعدم التعقيد، وأنها ذات اتجاه واحد لاعتبار الوظيفة أنها متوافقة مع ظروف البيئة والتقنيات المتطورة.

المقدمة

الحيز الداخلي هو ذلك الجزء الذي اقتطعه الإنسان من الفراغ العام المحيط به، وأوجده داخل هيئة معمارية خاصة، يمارس فيها أنشطته الحياتية بأوجهها المختلفة، ويتفاعل معها من خلال التأثير المتبادل بينهما، فهو من ناحية يؤثر في تكوينها المعماري وهي بدورها تؤثر في سلوكياته وصحته النفسية والبدنية. ومن هنا فإنه يمكن تعريف الحيز

الداخلي للمسجد (صالة الصلاة) بأنه ذلك الجزء من الفراغ والذي اقتطعه الإنسان ليؤدى فيه عبادة الصلاة، وبالتالي فإن الإنسان يؤثر في تكوين الهيئة المعمارية لحيز المسجد، كما أن تصميمها المعماري وهيئتها تؤثر عليه أثناء أداء الصلاة.

إن تحديد الحيز المكاني وجعله مكانا مخصصا لذكر الله تعالى وعبادته هي الأساس الذي يحول بموجبه الحيز المكاني من شئ مطلق إلى شئ خاص يتسم بخصائص تميزه عن غيره من الأماكن الأخرى ذات الوظائف المختلفة، فقد قال الله ﷻ لنبيه موسى عليه السلام ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾. [١, طه، آية ١٢] والمسجد هو بيت الله، ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصر﴾. [١, النور، آية ٣٦، ٣٧]

يقول الإمام سيد قطب (يرحمه الله) في تفسير هاتين الآيتين، بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه، وتتجرد له وتثره على كل مغريات الحياة، تلك البيوت ﴿أذن الله أن ترفع﴾ فهي مرفوعة قائمة، وهي مطهرة رفيعة، يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السماوات والأرض، وتتناسق طبيعتها الرفيعة، وتتصف بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله. وتتسق معها القلوب المضيئة الطاهرة، المسبحة الواجفة، المصلية الواهبة. [٢، ص ص٢٥٢٠] وإذا كان من الطبيعي أن تختلف عملية التصميم المعماري لحيز (أو أكثر) ذو الوظائف المختلفة، فإن عملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد تندرج تحت هذه القاعدة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تتسم بخصائص معينة قد تحدد منهج عملية التصميم واتجاهها الفكري، ليس على مستوى الجوانب الملموسة في عملية التصميم مثل الوظيفة والإنشاء، ولكنها أيضا على مستوى الجوانب التشكيلية.

إشكالية البحث

تتمثل إشكالية هذه الورقة البحثية في أنه أمام الاتجاهات الفكرية المتناقضة في عملية التصميم المعماري للمسجد المعاصر، أغفل البعض حقيقة التصميم المعماري للحيز الداخلي، فظهرت النماذج المعمارية الحديثة وهي إما بعيدة عما توصل إليه العصر الحالي من تقدم في مجال الفن المعماري. بل وتحتوى على نفس المشاكل التقليدية في عملية البناء والتصميم، كما أضافت بعض النماذج الأخرى مشاكل جديدة لم تكن متواجدة من قبل، ونتيجة لذلك افتقد الحيز الداخلي للمسجد الكثير من مقوماته التصميمية المطلوبة وأصبح في بعض الأحيان يصمم كأي حيز معماري يمكن تواجده في أي مبنى أخر.

هدف البحث

تهدف هذه الورقة البحثية بشكل أساسي إلى بيان خصائص عملية التفكير في تصميم الحيز الداخلي للمسجد المعاصر، والتي تميزه عن أي حيز آخر غيره، أو بمعنى أخر تلك التي تجعل العملية التصميمية لحيز المسجد تختلف

عن عملية تصميم أي حيز أخر وذلك لوضعها أمام المعماريين أثناء التعامل مع إشكالية تصميم الحيز الداخلي للمسجد.

منهجية الدراسة

ومن أجل تحقيق هذا الهدف رؤى أنه من الأفضل الاعتماد على المنهج التحليلي لبيان هذه الخصائص، من خلال محاولة الإجابة على مجموعة من التساؤلات المرتبطة بعملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد وهي:

- هل عملية التفكير في تصميم الحيز الداخلي للمسجد عملية مقيدة بضوابط محددة أم أنها متروكة لانطلاقة الفكر وما يمكن أن يصل إليه؟،
- ثم ماذا عن بساطة المشكلة التصميمية التي تتناولها أو مدى تعقيدها؟،
- وأي اتجاه يمكن أن تسلكه هذه العملية، هل في اتجاه الوظيفة أولا، أم الشكل أولا، أم كلاهما معا؟،
- ثم ماذا عن مدى توافقها مع الظروف المحيطة بمشكلة التصميم؟.

وقد اعتمد البحث على المصادر ذات الصلة بالموضوع وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفتاوى بالإضافة إلى طرق التصميم ومناهجه المعمارية المختلفة. حيث تم دراسة مدى إمكانية تحقيق خصائص التفكير في تصميم الحيز الداخلي للمسجد في عناصره المعمارية المختلفة وهي الوظيفة، وعناصر البرنامج المعماري، والموقع العام، والمسقط الأفقي (ثنائي الأبعاد)، والمداخل، والنوافذ، والسقف، والحوائط، والأرضيات، والحليات والزخرفة، والواجهات (ثنائية الأبعاد)، والهيئة المعمارية (ثلاثية الأبعاد) والمقياس، والإنشاء، والظروف البيئية المحددة، والإضاءة، والتهوية.

الخاصية الأولى – التقييد، لا الإطلاق

عملية التصميم المعماري هي في المقام الأول عملية فكرية تعتمد على الفكر الإبداعي بشكل خاص، والذي يتميز بأنه قد ينطلق بهذه العملية إلى حدود غير مدركة من الخيال للوصول إلى الأفكار الجديدة التي تحقق حلا متوافقا مع المطالب وظروف العمل المعماري، بجانب تحقيق قيم الحس الجمالية والإحساس بالجدة والأصالة[1] في العمل، وبشكل عام فإن هذه العملية تخضع لضوابط معينة يتطلب تحقيقها في الفكرة المقدمة، وتختلف هذه الضوابط من عمل معماري إلى آخر حتى لو تشابهت وظيفتهما بسبب اختلاف أحد المؤثرات مثل ظروف الموقع.

وإن كانت الضوابط التي يمكن وجودها في أي عملية تصميمية أخرى تتطلب تحقيقها في الفكرة التي تنتج عن هذه العملية، فإنها لا تمثل تقييدا معينا – مثلا – على الشكل الذي يمكن أن يأخذه المسقط الأفقي طالما أن الفكرة

---

١ الأصالة هنا تعني قدرة المبدع على القيام باستجابات غير معتادة أو غير مألوفة لأي منبه، أو القيام بتداعيات بعيدة لأفكار أو موضوعات معينة، فالإنسان المبدع يكون أصيلا بمقدار عدم تقليدية استجاباته للمنبهات التي يتعرض لها. ويمكن الحكم على الفكرة بالأصالة في ضوء عدم خضوعها للأفكار المألوفة وخروجها عن التقليدي وتميزها. [٣، ص٨]

المقدمة قد نجحت في التوافق مع هذه الضوابط، فإن عملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد كأي عملية أخرى تدور في هذا الإطار، فهي بالإضافة إلى خضوعها للضوابط العامة التي قد توجد في عملية تصميم أي حيز معماري آخر، مثل ضرورة التوافق مع ظروف الموقع المناخية، فإن لها ضوابط خاصة بها، مما يجعلها أكثر تقييداً عن غيرها من عمليات التصميم الأخرى. لذا فإن هذه الخاصية تناقش أبعاد بعض القيود المرتبطة بعملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد من خلال بعض عناصره التالية:

ضوابط في اختيار شكل المسقط الأفقي للحيز

يرتبط اختيار شكل المسقط الأفقي لأي حيز بوظيفة هذا الحيز، ومدى قدرة الشكل على التلاؤم مع هذه الوظيفة، مما يجعل جميع الأشكال المعمارية قد تكون صالحة ومهيأة للتوظيف في أي حيز معماري. فعلى سبيل المثال يمكن أن يصلح الشكل المربع أو الدائري كمسقط أفقي لتصميم حيز متحف، حيث قد يتوقف الاختيار هنا على ظروف الموقع وطبيعة العرض وإمكانية الامتداد المستقبلي، بينما في حيز المسجد نرى هناك تفضيلاً لأشكال معمارية على أخرى، بل ويستمر تطبيق الأشكال المفضلة مهما كانت ظروف الموقع والذي يجب أن تتهيأ حدوده وعلاقته بالوسط المحيط لاستقبال أي شكل من الأشكال المفضلة والمتلائمة معه.

فوظيفة الحيز كمكان للصلاة، حيث يقف الناس في استواء تام في صفوف بمحاذاة القبلة لقول النبي ﷺ "سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة،"[رواه البخاري ومسلم]، [٤، ص ص١٨٢] يؤدون نفس الحركات في نفس الوقت، كما أن هناك ترغيباً في الصلاة في الصف الأول لقول النبي ﷺ"لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه"[٢] كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول"خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها،"[رواه مسلم]، [٥] كل هذا يجعل هناك تفضيلاً لبعض الأشكال المعمارية عن الأخرى، فالشكل المستطيل وشبه المنحرف ونصف الدائرة (الموازى ضلعها الأكبر للقبلة)، كلها أشكال يمكنها تحقيق صفوف أولى أكثر طولاً، ومن هنا فهي أفضل في الاستخدام عنها في حالة الأشكال التي يكون طول ضلعها في مركزها مثل الدائرة والمسدس والمثمن حيث تتناقص الصفوف باتجاه القبلة، كل هذا يجعل عملية اختيار الشكل المناسب للمسقط الأفقي للحيز ذات قيود محددة، بل ويجعل الاتجاه في التفكير يتركز بصفة أساسية نحو البحث عن الجديد في تطوير استخدام هذه الأشكال المفضلة أكثر من البحث عن أي شكل أخر.

ضوابط في وضع الحيز في الموقع العام

في عمليات التصميم بوجه عام تتجه عملية التفكير في وضع المبنى في موقعه بناءً على اعتبارات خاصة بحدود قطعة الأرض والشوارع المحيطة بها وكذلك طبيعة النسيج العمراني المحيط بها. ومن خلال البحث في هذه العوامل يتضح

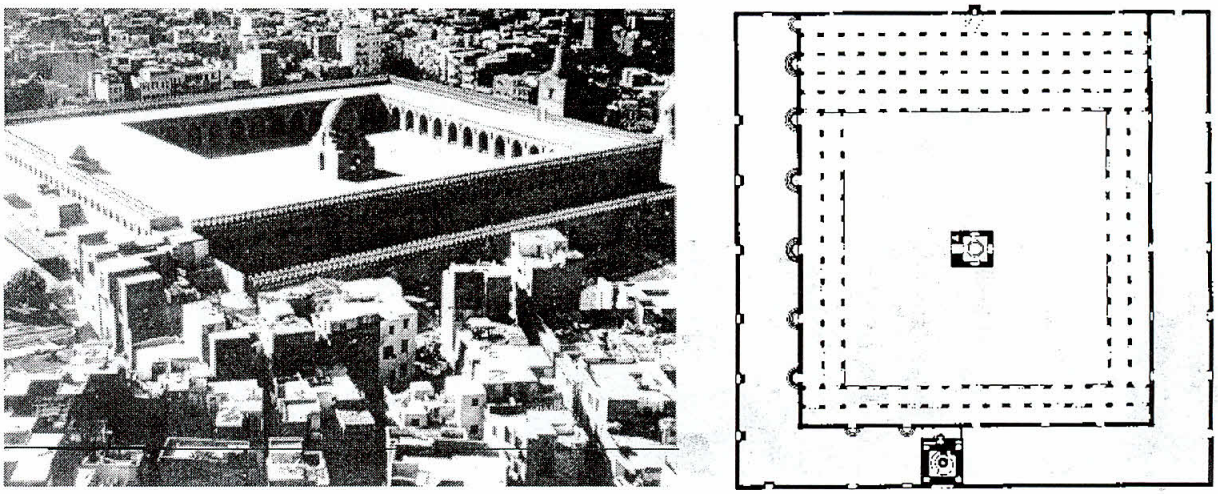
---

[٢] النداء: الآذان، استهموا عليه: اقتتلوا عليه.

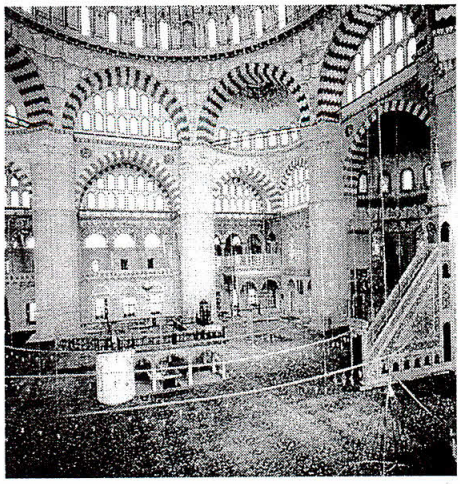
أن نتيجتها تتوقف بشكل أساسي على اتجاهات متباينة للفكر المعماري، فقد يرى البعض أنه من عوامل نجاح الفكرة المقدمة يتوقف على مدى توافق هيئتها المعمارية مع الموقع المخصص لها، وكذلك مع الوسط العمراني المحيط بها باعتبار وجهة النظر الخاصة بضرورة انسجام المبنى مع الموقع والوسط العمراني من حوله، بينما يرى البعض الأخر أن التعارض بين الهيئة المعمارية للفكرة وحدود الموقع العام أو الوسط المعماري المحيط بها هو من عوامل نجاح هذه الفكرة على اعتبار أن التضاد يظهر الفكرة ويقويها، وهكذا بحيث تصبح هذه العوامل لا تمثل قيدا على عملية التفكير بقدر ما تمثل مجالا لأن يتجول المعماري عبر الخيال الرحب ليستقي منها الأفكار التي يقوي بها نظرته المعمارية.

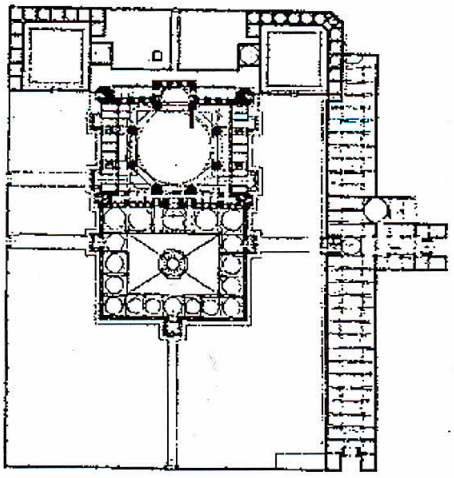
أما في عملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد فلا يترك وضع الحيز في الموقع طبقا لوجهات النظر المتباينة، ولكن طبقا لمحدد الاتجاه نحو القبلة، مصداقا لأمر الله تبارك وتعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾، [١، البقرة، آية ١٤٤] ولو لم تحدث هذه العملية لما توافق الشكل المعماري مع وضع الصفوف داخله، وربما فقد مسطح كبير من الأرض.

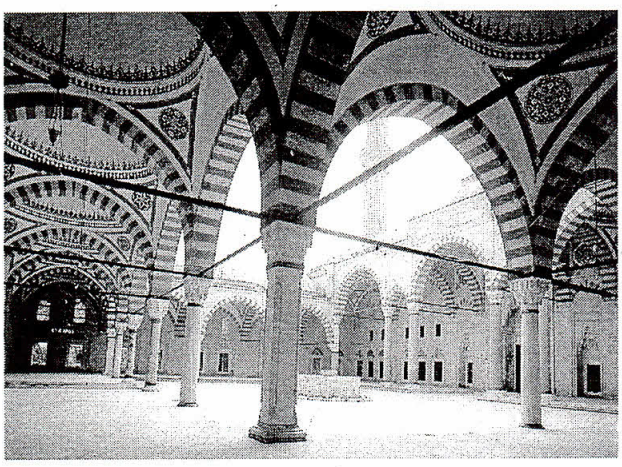
ولا يقتصر المحدد هنا على توجيه الحيز في بعديه ناحية القبلة (باعتبار ذلك من الأمور المسلم بها)، بل قد يتعدى الفكر هنا هذه المرحلة ليصبح هناك ضرورة نحو توجيه هيئة الحيز في أبعاده الثلاثة ناحية القبلة، ويمكننا ملاحظة هذا المفهوم بشكل واضح في عمارة المسجد القديم والحديث على السواء وإن اختلفت الكيفية التي تحقق بها. ففي المسجد القديم – سواء في النمط العربي حيث الصحن المكشوف والظلات المحيطة به، أو في نمط المدارس حيث الصحن المكشوف المحاط بإيوانات، أو المسجد ذي القبة المركزية – يلاحظ تحول مركز ثقل الحيز ناحية القبلة حيث الاهتمام الواضح بحيز الصلاة والمتمثل في زيادة عمقه، أو استخدام الظلات الجانبية بالشكل الطولي العمودي على القبلة، أو بروز المحراب بشكل واضح في حائط القبلة، أو وضع المآذن (شكل ١ – ٢).



شكل ١: جامع أحمد بن طولون بالقاهرة.

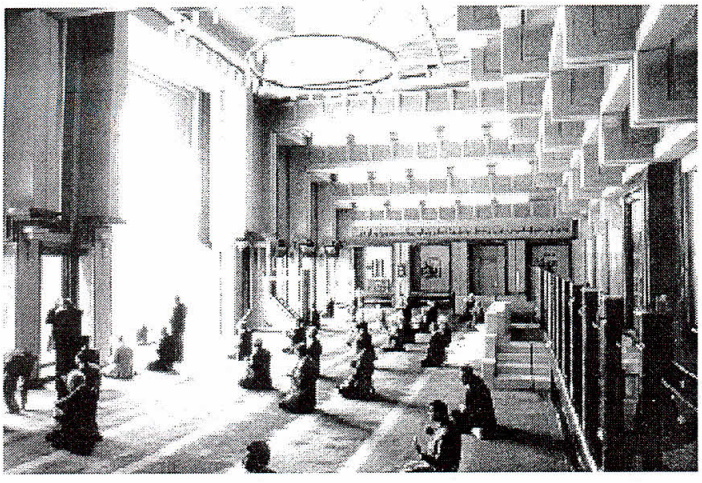


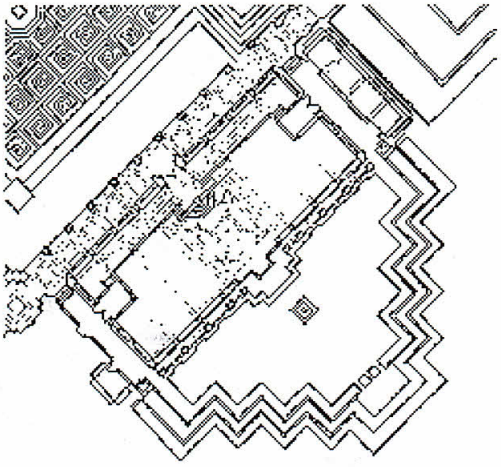




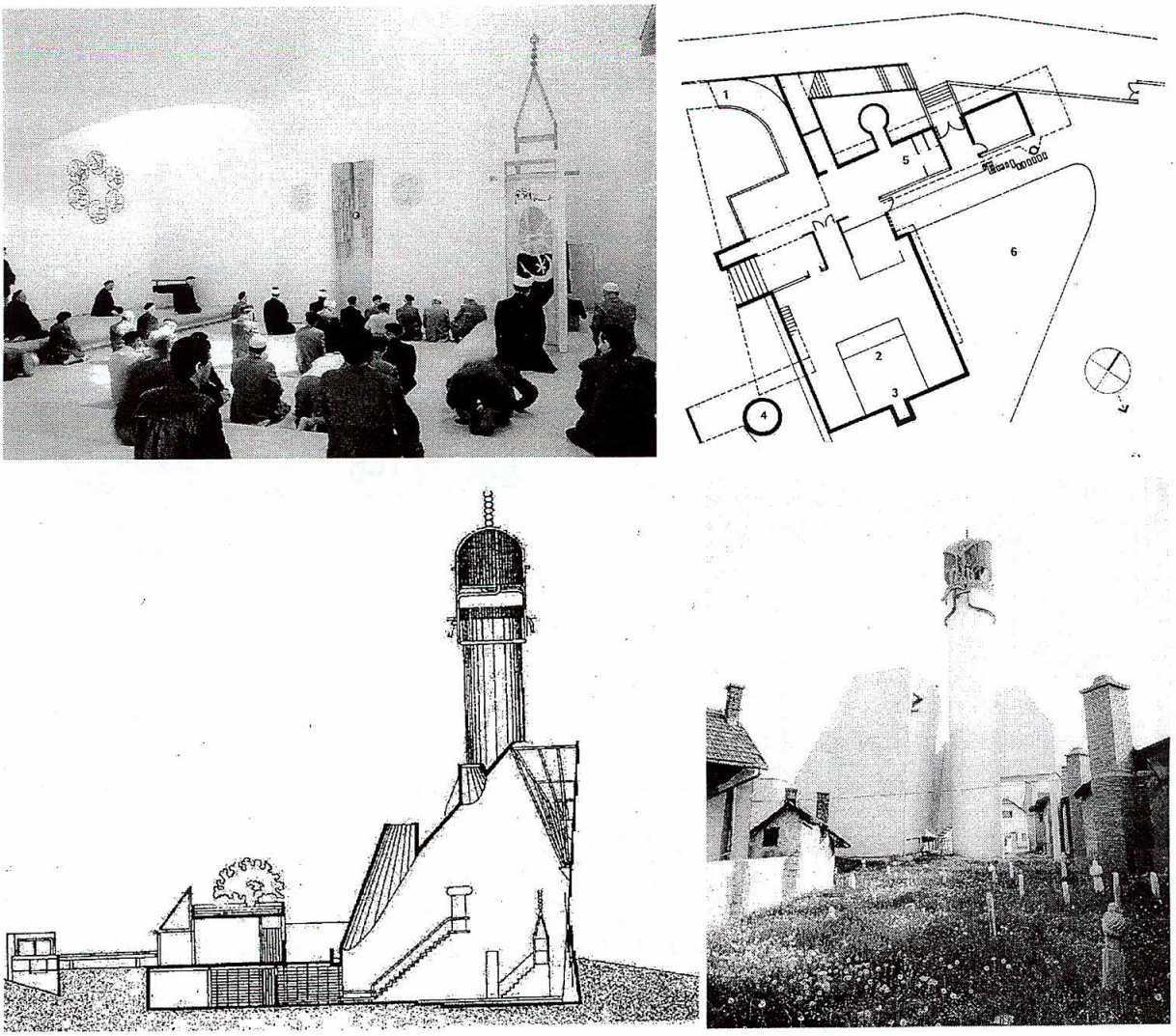
شكل ٢: جامع السليمية بادرنه.

وفي المسجد الحديث، يلاحظ التدرج في الأسقف والأرضية ناحية القبلة (شكل ٣ - ٤) بشكل يؤكد هذه الاتجاهات المحدودة الفكر.





شكل ٣: مسجد الجمعية الوطنية بأنقرة.



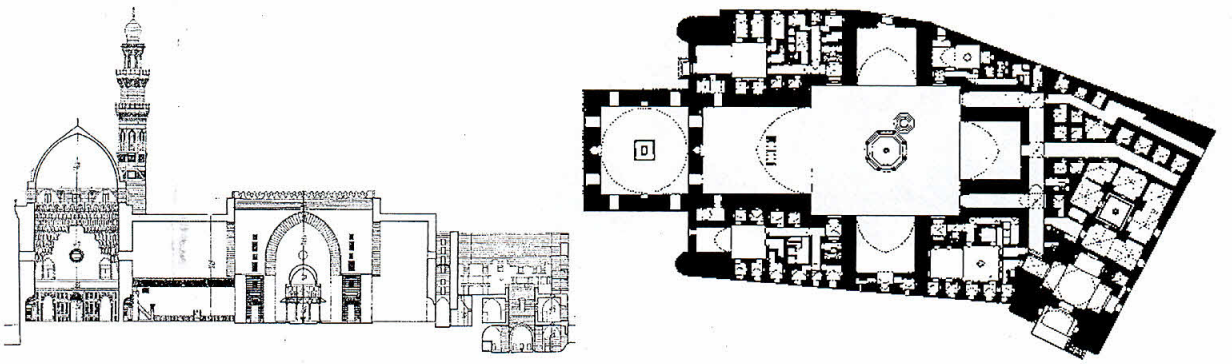
شكل ٤: مسجد شرف الدين الأبيض بالبوسنة.

ضوابط في تحديد مداخل الحيز

تعد مداخل الحيز من الخصائص المهمة المرتبطة بالوسط المحيط به كحيز تم اقتطاعه من الفراغ العام لتأدية نشاط معين، ويتوقف تحديد المداخل لأي حيز معماري على وضع المبنى في الموقع العام وعلاقته بالشوارع المحيطة، إلا أن وظيفة حيز المسجد تملي على تحديد مداخله ضوابط خاصة، فقد روى أبو داود والنسائي والبيهقي عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "أتموا الصف المقدم ثم الذي يليه فما كان من نقص فليكن في الصف المؤخر"، وعن عبد الله بن يسر ﷺ قال: جاء رجل يتخطى رقاب المصلين يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال له رسول الله ﷺ "اجلس فقد آذيت وآنيت"[٣] (رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره)، من هنا كره أهل العلم تخطى الرقاب يوم الجمعة وشددوا في ذلك.[٤، ص ص١٨٣، ٢٢٤] وهذا يجعل عملية الفكر المعماري تتجه في شكل مقيد نحو وضع مدخل

[٣] آذيت: أي آذيت الناس بتخطي رقابهم، آنيت: أبطأت وتأخرت في الحضور للصلاة.

الحيز من الخلف في الحائط الموازى لحائط القبلة، وتترك عملية المواءمة مع ظروف الموقع العام لما يتوصل إليه الفكر من إبداعات في هذه الناحية، ففي جامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة (شكل ٥)، نجح المصمم من خلال استغلال فكرة المدخل المنكسر في تحقيق مداخل خلفية للحيز رغم أن المدخل من الشارع كان في الواجهة العمودية على القبلة.



شكل ٥: جامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة.

ضوابط في وضع النوافذ داخل الحيز

وضع النوافذ داخل أي حيز معماري وكذلك ارتفاع النافذة بالنسبة لمستوى نظر المستخدم يتوقف على وظيفة الحيز ومتطلبات هذه الوظيفة من الإضاءة والتهوية والمطل والخصوصية، ورغم ذلك فقد شهدت الساحة المعمارية تنوع فكري لوضع النوافذ في إطار تحقيق علاقات مبتكرة بين الداخل والخارج من خلال هذه الفتحات، والتي استخدمت في بعض الأحيان كعناصر تشكيلية في الواجهات والأسقف فانطلق معها الفكر المعماري وأوجد نماذج متعددة وتشكيلات متباينة. ورغم أن تحقيق متطلبات الحيز الداخلي من الإضاءة والتهوية والمطل والخصوصية والحماية من أشعة الشمس، والتي قد تختلف من عمل معماري إلى آخر، يخضع لاعتبارات تفضيل أحد هذه المتطلبات على الأخر، إلا أنها لم تقيد الفكر المعماري في الوصول إلى حلول مبتكرة لحل المشكلات التي قد تحدث بسبب ذلك. ومن هنا تصبح الانسيابية الفراغية[٤] جانبية أو علوية ويصبح الحيز الداخلي منسابا عبر هذه الفتحات ليلتقي مع الحيز الخارجي في مناطق وأجزاء متنوعة.

أما في الحيز الداخلي للمسجد، فإن وضع النوافذ يؤثر بشكل قاطع على وظيفته وبالتالي على المصلي أثناء الصلاة، ومن هنا تنبع أفضلية عدم وجود النوافذ في مستوى نظر المصلين، وبشكل خاص في حائط القبلة أو الحوائط الجانبية، حتى لا يحدث صرف لأذهان المصلين وشغل لقلوبهم أثناء الصلاة أو سماع الخطبة. ومن هنا تتحدد انسيابية الحيز الداخلي بشكل قاطع لتكون من أعلى وليست من الجوانب، فطبيعة نشاط الصلاة تملي تفضيل

٤ يقصد بالانسيابية الفراغية هي مدى وشكل الاتصال بين الحيز الداخلي والفراغ الخارجي المحيط به، فإذا وقع الحيز داخل صندوق مقفل فإن الحيز في هذه الحالة يكون منغلقا على نفسه حتى ولو وجدت نوافذ خارجية، إما إذا وقع الحيز داخل هيئة معمارية ديناميكية تتداخل أجزاؤها وتلتقي مع الحيز الخارجي في مناطق وأجزاء كثيرة قيل أن الحيز الداخلي في هذه الحالة منسابا من الجوانب أو من أعلى، حسب طبيعة الاتصال بينه وبين الفراغ المحيط به.[٣، ص ص٥٣]

عدم الاتصال على المستوى الأفقي بين الحيز الداخلي والحيز الخارجي، وتكون الانسيابية العلوية هي الأقرب لاتصال الحيز الداخلي.

وقد تأكدت هذه الانسيابية الفراغية العلوية المحددة في معظم المساجد القديمة والحديثة على السواء، فقد ساعد الصحن المكشوف والفتحات في رقاب القباب على تحقيق هذه الانسيابية والتي حققت للحيز الداخلي مطالبه الخاصة في أنماط المساجد التقليدية (شكل ١)، وفي العصر الحديث وجدت نماذج توضح سعى المصمم للالتزام بهذا القيد في عملية التصميم. ففي مسجد شرف الدين الأبيض في البوسنة (شكل ٤)، يلاحظ التشكيل المتداخل للسقف والذي أوجد من خلاله المصمم أماكن جديدة لاتصال الحيز الداخلي بالفراغ من أعلى، بينما في مسجد الجمعية الوطنية بأنقرة (شكل ٣) ورغم ما أبداه المصمم من التزام بهذه القاعدة في التدرج في سقف الحيز حيث وضعت النوافذ في هذا التدرج، إلا أنه أفقد الحيز الداخلي هذه الصفة عندما لجأ إلى عمل حائط القبلة من الزجاج ويطل على بحيرة من أمامه، فظهر الفكر في غير موضعه، بل وتناقض مع اتجاهه نحو تطوير الانسيابية العلوية من خلال الاستفادة من إمكانيات الإنشاء الحديث في تشكيل السقف.

الخاصية الثانية – البساطة، لا التعقيد

تتسم عملية تصميم المباني عموما بالتعقيد من خلال الخطوات والمراحل الكثيرة التي تمر بها، ومن خلال العوامل الكثيرة المتشابكة التي تؤثر عليها، والمتطلبات التي يلزم تحقيقها من خلالها، وهي التي تملي على المصمم تقديم الفكر المعماري المبتكر الذي يتوافق مع كل هذه العوامل والظروف.

أما بالنسبة لعملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد، فلا نعتقد أن هناك عملية تصميم لأي حيز معماري في مستوى بساطة هذه العملية، نظرا لبساطة المشكلة التصميمية التي تبحث عن حل لها، فحيز المسجد الداخلي هو في حقيقته حيز مكاني مخصص للصلاة وذكر الله تعالى وعبادته، يمكن تحديده بأبسط العناصر: حوائط فقط أو حوائط وسقف. وتناقش هذه الخاصية مدى بساطة المشكلة التصميمية المعروضة على العملية الفكرية.

بساطة عناصر البرنامج المعماري للمسجد

في حين يحتاج الحيز الرئيسي في المباني إلى حيز خدمة تساعده على تحقيق وظيفته، فإن الحيز الداخلي للمسجد لا يتعدى كونه حيزا قائما بذاته، فهو حيز لأداء الصلاة والتي لا تتطلب سوى مكان محدد يتسم بالطهارة ومتجه ناحية القبلة، حتى إن الميضأة أو دورات المياه والتي قد تبدو مهمة لأداء هذه الوظيفة، فإنها ليست من ضروريات وظيفة الحيز، والذي يمكنه أن تؤدى وظيفته بدونها، بل إن التطهر في البيت لهو الأفضل، لقول رسول الله ﷺ: "من تطهر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة"، [رواه مسلم]، [٦، ص ص ٤٩١] بالإضافة إلى ذلك فإن العناصر الأخرى مثل غرفة الإمام،

عبارة عن حيز أضيف إلى عمارة المسجد في العصور المتأخرة، بل إن اتخاذ المقصورة[٥] داخل المسجد لم يعهد إليه في الصدر الأول، وقال أبو العباس القرطبي في شرح مسلم: لا يجوز اتخاذها ولا يصلى فيها لتفريقها الصفوف وحيلولتها من التمكن من المشاهدة. وروي أن الحسن البصري وبكر المزني كانا لا يصليان فيها، لأنها أحدثت بعد النبي ﷺ والمسجد مطلق للجميع،[٧، ص ص ١٤٩] حيث لا يمكن لعامة الناس الصلاة فيها.

ومما يثير الدهشة أنه على الرغم من تعدد وظائف المسجد منذ مسجد الرسول ﷺ فإن الأمر لم يغير شيئا في برنامجه المعماري، فقد ظل الحيز الداخلي (صالة الصلاة) هو الحيز المرن الذي يمكنه أن يتلاءم في مرونة تامة مع أي وظيفة أخرى، فصالة الصلاة هي نفسها مكان تلقي العلوم حيث يجلس الإمام ومن حوله طلاب العلم، وهي نفسها قاعة المحكمة حيث يجلس القاضي ومن أمامه الجمهور ومن خلفه الهيئة المنفذة للأحكام.

بساطة الهيئة المعمارية للحيز

الهيئة المعمارية[٦] للحيز الداخلي للمسجد هي الصورة النهائية المدركة للتكوين المعماري العام للحيز، بما في ذلك الشكل العام للحيز في الأبعاد الثلاثة، وكذلك أشكال الأسطح المغلفة له ومكوناتها المعمارية والإنشائية، تلك الصورة التي تبقى في ذهن المشاهد وتعطي للمسجد صفة الاختلاف والتميز.

وينبع مبدأ تبسيط الهيئة المعمارية للمسجد من نهي الرسول ﷺ عن التطاول في البنيان[٧] ليس في عمارة المسجد فحسب بل وفي البناء عموما، فقد روى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان" (أخرجه البخاري)، وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "أراكم ستشرفون مساجدكم بعدي كما شرفت اليهود كنائسها وكما شرفت النصارى بيعها"،[٨] كما روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن ﷺ قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجده قال: "ابنوه عريشا كعريش موسى عليه السلام" قيل للحسن ما عريش موسى؟ قال إذا رفع يده بلغ العريش – يعني السقف"،[٦، ص ص ٤٨٧] وفي هذا دلالة واضحة على ضرورة تبسيط هيئة المسجد المعمارية داخليا وخارجيا والبعد عن التطاول في البنيان، لما في ذلك من التفاخر والتباهي والبعد عن بساطة الدين الإسلامي، فيفسد بذلك الدين والدنيا. وقد عبر مسجد الرسول ﷺ عن هذه الروح، ولكن في العصر الحديث ،وبعض العصور الإسلامية الأولى، نرى أن التوجه الفكري ينصب في الاهتمام الكبير بتضخيم الهيئة المعمارية لحيز المسجد. فجامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة (على

---

٥ المقصورة: هي حجرة تبنى في صدر المسجد على يمين القبلة أو يسارها لكي يصلي فيها الحاكم، والقصد منها حمايته من الناس، وقد عرفت في كثير من المساجد، وأشهر المقاصير في تاريخ العمارة الإسلامية تلك التي أنشأها الأمير محمد الأموي الأندلسي في مسجد قرطبة الجامع وكانت تقوم على يمين جدار القبلة في هيئة غرفة صغيرة يدخل إليها من باب خاص فتح في جدار الجامع الأيمن (بالنسبة للقبلة) في مواجهة باب قصر الخلافة.[٦، ص ص ١٤٩،٩٣]

٦ مصطلح الهيئة هو اللفظ العربي المقابل لكلمة Form، والتي تضمنها التعبير الشهير Form Follows Function وهي في نظرنا أشمل من كلمة الشكل، لأنها تتضمن الإطار العام للموضوع والذي قد يشمل في مجمله مجموعة من الأشكال للعناصر المعمارية المكونة للعمل.

٧ التطاول في البنيان: المقصود به زيادة ارتفاع السقف وليس عدد الأدوار.[٦، ص ص ٤٨٧]

٨ تشرفون: أي تجعلون لها شرفات وعلامات مميزة. ابن ماجة (ص، ٧٣٢).

سبيل المثال) يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٥ م[٨، ص ص ٥٦] (شكل ٥)، وقبة جامع السليمية بأدرنه ارتفاعها حوالي ٤٣م[٩، ص ص ٢٠٢] (شكل ٢).

بساطة تشكيل عناصر الحيز

التشكيل المعماري لعناصر أي حيز معماري يمكن القول بأنها عملية تخضع لوجهات النظر المعمارية والمدارس الفكرية المختلفة، وبالتالي فهي متروكة لما يمكن أن تتوصل إليه حدود وانطلاق الفكر المعماري وما ينتجه من تراكمات قد تصل إلى درجة كبيرة من التعقيد والتداخل، سواء في تشكل العناصر بذاتها مثل شكل السقف أو الحوائط أو الأرضية، أو ما يمكن أن يضاف عليها من زخارف وحليات لإيجاد القيم الجمالية والحسية. هذا بالنسبة لأي حيز معماري ذو وظيفة أخرى، أما بالنسبة لحيز المسجد فتختلف عملية تشكيل عناصره عن غيره، ففي حين يمكن عمل أرضية أي حيز (على سبيل المثال) بأي شكل يراه المعماري مناسبا لوظيفته، تتطلب أرضية المسجد التبسيط والاستواء ليتحقق استواء الصفوف.

أما بالنسبة للزخرفة فقد اختلف الفقهاء في زخرفة المسجد بالذهب والفضة وفي النقش على جدرانه والكتابة عليها، ونحو ذلك مما قد يلهي المصلي ويشغله، فأجاز ذلك الحنفية ورأوا فيه تعظيما له. ومنهم من استحب ذلك، وبعضهم كرهه، وفي المذهب الحنبلي قول بالكراهية وآخر بالتحريم. وفي المذهب المالكي قول بالجواز، وفي مذهب الشافعية كراهية نقش المسجد واتخاذ الشرفات له،[٩] وقد قال بعضهم لو مررنا على القول بالجواز فكم من مباح تركه رسول الله ﷺ ورعا واستقلالا من الدنيا في مأكله ومسكنه وملبسه ومصلاه الذي كان يصلي به،[٩] وحجة من كره زخرفة المسجد أنه قد روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وصححه ابن حبان عن أنس أن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد"، ولفظ ابن خزيمة: "يأتي على الناس زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلا "، كما روى أبو داود وابن حبان وصححه عن

ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "ما أمرت بتشييد المساجد"، [٩] زاد أبو داود: قال ابن عباس ﷺ: "لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى". [٤، ص ص ١٨٦]

الخاصية الثالثة – الوظيفة، لا الشكل

تباينت النظريات المعمارية حول تحديد أيهما أولا هل الوظيفة أم الشكل، ورغم اعتماد الفصل في هذه القضية على الآراء الفكرية المتباينة أصلا إلا أن ذلك الأمر يتوقف على الإجابة عن ماهية الوظيفة وماهية الشكل أيضا، ومن هنا يتباين المدخل التصميمي للمشروعات، فعلى سبيل المثال تأتي العلاقات الوظيفية بين العناصر في المقام الأول في مشروع تصميم مستشفي أو مطار، بينما تأتي النواحي التشكيلية في المقام الأول في مشروع تصميم صالة عرض أو كافتيريا. ولأن الإسلام يهتم دائما بالجوهر قبل المظهر، فإننا نلاحظ الاهتمام الواضح بالعمارة

٩ ما أمرت بتشييد المساجد: أي برفع بنائها زيادة على الحاجة.

الداخلية عن الخارج ليس في عمارة المسجد فحسب، بل حتى في المباني العامة الأخرى والسكنية، ولا يتوقف الاهتمام على التشكيل المعماري الداخلي فقط بل يشمل الوظيفة التي يؤديها المبنى.

وتناقش هذه الخاصية المدخل التصميمي للحيز الداخلي للمسجد والعلاقة القائمة بين الوظيفة والشكل من خلال النقاط التالية:

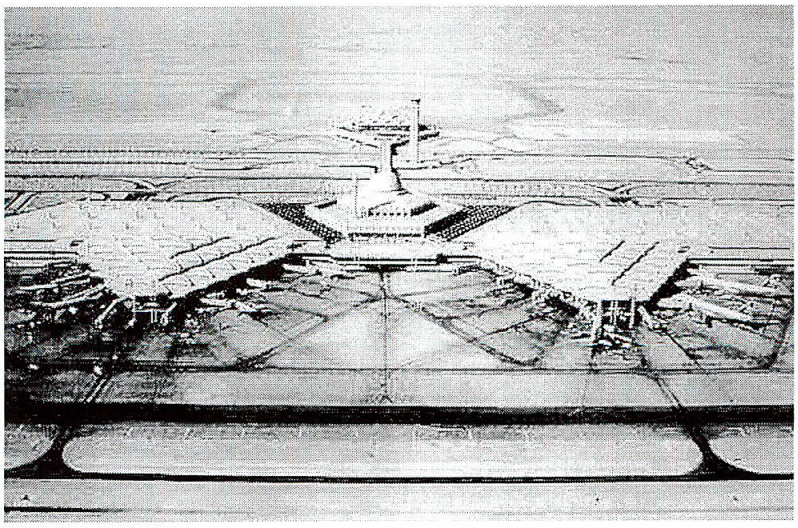
التصميم من الداخل إلى الخارج

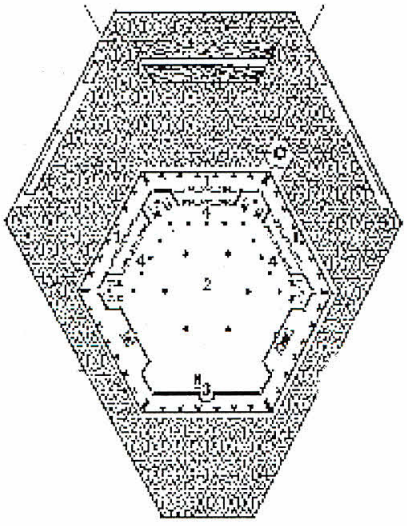
كما سبق وأن ذكرنا بأنه في مشروع تصميم مستشفي على سبيل المثال، يأتي الاهتمام بالعلاقات الوظيفية في المقام الأول بدراسة الحركة بين الأقسام المختلفة وداخل كل قسم، بينما في صالة العرض يتركز المدخل التصميمي على الشكل الخارجي والهيئة الخاصة به. والحقيقة أن التفكير المعماري لا يعترف بالفصل بين الوظيفة والشكل بل هما معا وهذا ما يتوقف على خبرة المعماري من خلال المنهج الوسطي بينهما أي المدخل ذي الاتجاهين والذي يتميز بالمرونة في تحقيق الوظيفة والشكل المغلف لها في كل مرحلة من مراحل عملية التفكير في الفكرة المقدمة.

أما بالنسبة لإشكالية تصميم الحيز الداخلي للمسجد، فيبدو التساؤل عن أي الاتجاهات الفكرية تسلك في عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد؟ وكما سبق وأن ذكرنا فإن شكل المسقط الأفقي يتحدد بناء على مدى توافقه مع وظيفة الحيز كمكان للصلاة في صفوف منتظمة باتجاه القبلة، وبالتالي فإنه يتم البحث عن الشكل المعماري للمسقط الذي يناسب هذه الوظيفة أولا. ولا يمكن أن تنجح عملية التصميم لو أنه أوجدنا الشكل أولا ثم بحثنا عن مدى توافقه مع عبادة الصلاة، ومن هنا فإنه يمكن القول بأن عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد هي عملية ذات اتجاه واحد تهتم بالوظيفة أولا. بمعنى أن التصميم يتم من الداخل إلى الخارج، وليكن الشكل الخارجي الذي يغلف هذه الوظيفة على أي صورة طالما أنه في إطار منهج التبسيط الذي سبق وأن تناولناه.

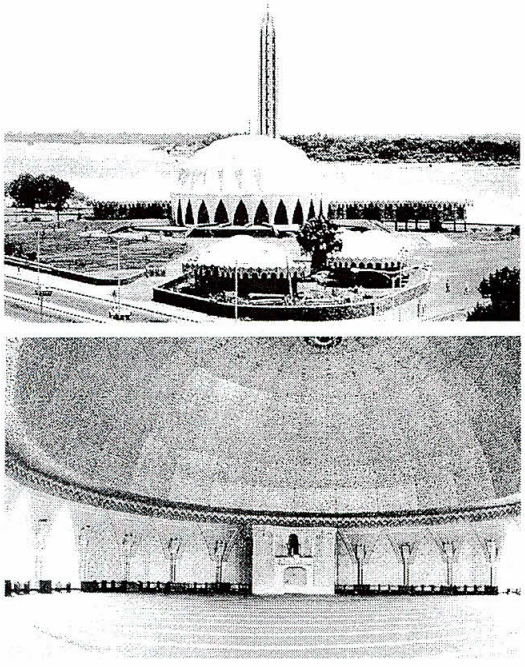
ومن هذا المنطلق وما يؤكد هذه النظرة أن مساجد العصور الإسلامية الأولى قد توافقت في شكل المسقط الأفقي كشكل يتواءم مع نشاط الصلاة وإن اختلفت في الشكل الخارجي، ومن هنا فإن عملية التصميم كانت ناجحة وهي في إطار الاهتمام بالوظيفة المطلوبة، ومن هنا أيضا يحدث الفشل الوظيفي في حالة انقلاب اتجاه عملية التصميم المعماري بحيث يحدث الاتجاه نحو الشكل، أي أن عملية التصميم تبدأ من الخارج إلى الداخل. ففي مسجد مطار الملك خالد بن عبد العزيز بالرياض (شكل ٦) على سبيل المثال - فرض المصمم شبكة (Grid) مسدسة الشكل والمتبع في تصميم مبنى المطار على المسجد حتى يتوافق شكله مع شكل المطار، والنتيجة هي حيز معماري مسدس الشكل لا يتوافق مع وضع الصفوف واستطالة الصفوف الأولى، ولا يعطي الاتجاه الواضحة ناحية القبلة. ومثال آخر هو مسجد النيلين بالخرطوم (شكل ٧) حيث توضح الهيئة العامة للمسجد من الخارج ذات القبة الضخمة والشكل المميز، أنها كانت هدفا مقصودا لتمييز هيئة المسجد الخارجية، والنتيجة هي حيز داخلي ذو مسقط دائري الشكل لا يتوافق مع صفوف الصلاة ولا يحقق أيضا الاتجاه نحو القبلة، بل ولولا وجود

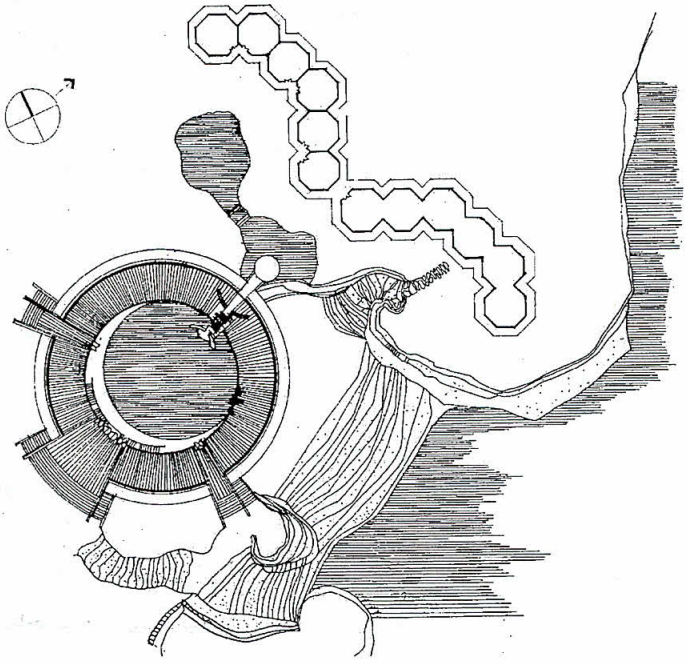
المحراب لما اختلف الحيز الداخلي عن كونه صالة للعرض أو كافتيريا. ومن هنا يتبين لنا تأكيد البحث عن الشكل المعماري الذي يتواءم مع وظيفة المسجد، كما يتبين تأكيد اتجاه عملية التصميم المعماري نحو الاهتمام بتوفير حيز يناسب وظيفته كحيز للصلاة.





شكل ٦: مسجد مطار الملك خالد بن عبد العزيز بالرياض.





شكل ٧: مسجد النيلين بالخرطوم.

الهيئة المعمارية للحيز من الخارج

تختلف هيئة المبنى الذي يحتوي على أكثر من حيز، عن المبنى ذو الحيز الواحد أو ما يسمى بالحيز الشامل[١٠] Universal Space، ولكل من هذه المباني هدف يؤثر في تكوين الإطار العام للهيئة المعمارية التي تأخذها هذه المباني من الخارج، ولا شك في أن هذه العملية هي قضية تشكيلية بالدرجة الأولى وتخضع أيضا لوجهات مختلفة من الفكر المعماري المتباين.

وقد سبق وأن أوضحنا أن حيز المسجد الداخلي هو حيز واحد وقد لا يحتاج إلى أي حيز آخر مكملة لوظيفته. ومن خلال البحث في الهدف من نشأة المسجد كبناء، فقد سبق وأن ذكرنا أن رسول الله ﷺ قال "ما أمرت بتشييد المساجد" الحديث، كما روى ابن خزيمة وصححه: أن عمر ﷺ أمر ببناء المساجد فقال: "أكن الناس من المطر، وكأن تحمر أو تصفر فتفتن الناس"[١١] (رواه البخاري معلقا)،[٤، ص ص ١٨٦] وفي هذا دلالة واضحة على أن وضع حيز المسجد داخل مبنى محدد لم يكن بغرض البناء وإيجاد هيئة معمارية خارجية مميزة بقدر ما هو للحماية من المطر والحر.

وعن علاقة الهيئة المعمارية للحيز – والتي تشكل الهيئة العامة للمسجد من الخارج – بالنسيج العمراني المحيط به، فقد جاء في الحديث النبوي عن السيدة عائشة رضى الله عنها "أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأمر بها أن تنظف وتطيب" (أخرجه أحمد في المسند ٢٥١٨٢)، وفي ذلك دلالة واضحة على أن بناء المسجد لم يكن بناء تذكاريا بل هو جزء من النسيج العمراني يتكامل معه ويرتبط به عضويا.[٦، ص ص٤٩١] كما سبق وأن ذكرنا أن رسول الله ﷺ نهى عن التطاول في البنيان وتعظيم هيئة المسجد من الخارج لقوله ﷺ "أراكم ستشرفون مساجدكم بعدي كما شرفت اليهود كنائسها وكما شرفت النصارى بيعها" الحديث.

هذا ويعتقد البعض أن الهيئة المعمارية الخارجية للمسجد التقليدي ترتبط بالجوانب الروحية، كما تعبر عن قدسية المكان، مع أنه لم يكن لهذه الهيئة أو العناصر المكونة لها من قبة ومآذن وضخامة واضحة أي وجود في صدر الإسلام، حيث أن قدسية المكان تتحقق بإضفاء عوامل الطهارة والهدوء وقوة البنيان وسلامة الإنشاء، مع النقاء والصفاء الشكلي الذي يتلاءم مع النقاء والصفاء النفسي الذي يجب أن يتحلى به المسلم عند دخوله بيتا من بيوت الله.[٦، ص ص ٤٩١]

الخاصية الرابعة – التوافق، لا التناقض

وهي خاصية قد لا تختص بها عملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد عن غيرها من العمليات الأخرى، والتي يجب أن تتوافق مع الظروف المحيطة بالعمل والإمكانيات المتاحة لعملية البناء. ويعد التناقض في هذه الحالة من

---

١٠ الحيز الشامل: هو حيز يمكن استخدامه كحيز مستقل، أو تقسيمه حسب الحاجة بمرونة فائقة بواسطة قواطع شفافة أو مصمتة لا تتقيد في توزيعها بنقاط الارتكاز ولا تؤثر في الشعور بتكامل الحيز كوحدة واحدة.[٣، ص ص ١٧٨]

١١ أكن الناس من المطر: أي أسترهم. فتفتن الناس: أي تلهيهم.

السلبيات، بل ومن أبرز جوانب القصور في عملية التصميم المعماري. وتناقش هذه الخاصية مدى التوافق بين عملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد والظروف المؤثرة على تصميمه.

التوافق مع ظروف الموقع

وليس المقصود من ظروف الموقع هنا هي حدود قطعة الأرض المخصصة للمشروع، بل هي الظروف البيئية المحددة لموقع العمل والمؤثرة على تصميمه في جميع مراحل العملية التصميمية، وكأي حيز معماري آخر فإن الحيز الداخلي للمسجد يحتاج إلى تحقيق مطالب الإضاءة والتهوية الطبيعية، تلك المطالب التي يمكن أن تتحقق بأبسط المنشآت المعمارية، والتي تنعكس على هيئة الحيز المعمارية.

ففي مساجد العصور الإسلامية الأولى، اتجه الفكر المعماري نحو اعتبار الصحن المكشوف من أساسيات المسقط الأفقي للمسجد، لما له من دور فعال في تحقيق هذا التوافق مع المناخ وخصوصا في المناطق الحارة، وقد تباين وفقا لاختلاف مناخ المناطق، فقد انكمشت الصحون المكشوفة انكماشا شديدا في البلاد الباردة أو الشديدة الحرارة، ومن هنا فإن الصحون تصغر كلما اتجهنا شمالا أو جنوبا في بلاد الإسلام، فهي تكاد تكون أفنية مكشوفة في مساجد البلاد العربية وإيران وشبه القارة الهندية، وتصغر أحجامها جدا في مساجد آسيا الصغرى وما وراء النهر وتركيا والبلاد الإسلامية الشمالية.[٧، ص ص ٩٠]

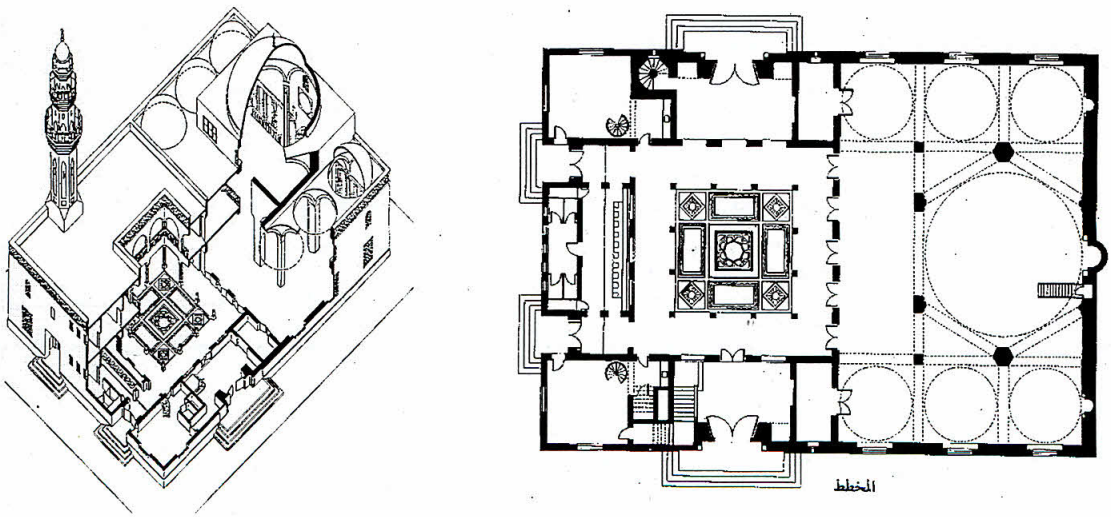
التوافق مع التقنيات المتطورة

وهي تتعلق بموقف عملية تصميم الحيز الداخلي للمسجد من التقدم في مجال البناء، ومدى الاستفادة مما توصل إليه العلم من تقنيات متطورة في مواد البناء وطرق الإنشاء. فليس من المقبول بأي حال من الأحوال ألا يختلف تصميم الحيز الداخلي للمسجد المعاصر عنه في المسجد التقليدي ليس في عملية التشكيل المعماري فحسب ولكن في قضايا أخرى أكثر ارتباطا بوظيفة الحيز، ومنها على سبيل المثال إشكالية كيفية تحقيق حيز مسقوف للصلاة يحقق وحدة الصفوف وعدم قطعها ويمكنه استيعاب عدد كبير من المصلين. فقد روى النسائي والحاكم وابن خزيمة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من وصل صفا وصله الله، ومن قطع صفا قطعه الله."[٥، ص ص١٨٣] وعن الصلاة بين السواري (الركائز الإنشائية)، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما: "أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة صلى بين الساريتين"، وكان سعيد بن جبير وإبراهيم التيمي وسويد بن غفلة يؤمون قومهم بين الأساطين، وأما المؤتمون فتكره صلاتهم بينها عند السعة بسبب قطع الصفوف ولا تكره عن الضيق، فعن أنس ﷺ قال: "كنا ننهى عن الصلاة بين السواري ونطرد عنها" (رواه الحاكم وصححه).[٤، ص ص ١٨٩]

وبسبب الإمكانيات المتواضعة للإنشاء التقليدي الذي كان سائدا في العصور السابقة، فلم يتمكن المصمم من تحقيق هذا الحيز ذو الوحدة الفراغية الواحدة والمتكاملة والذي لا يحتوى على أية ركائز إنشائية، وإن كان التاريخ المعماري يثبت محاولات المعماري "سنان باشا" لتحقيق ذلك في المساجد التي أنشأها في تركيا، والتي بلغت أفضل

صورها في جامع السليمية الذي بناه للسلطان سليم الأول في أدرنه، حيث تغطي حيز الصلاة قبة ضخمة يبلغ قطرها ٣١,٥ مترا، وفي وصف هذا الإنجاز يقول سنان: " ... ولهذا قررت مستعينا بالله - إقامة هذا المسجد - في عهد السلطان سليم خان، جاعلا قبته أوسع من صوفيا بمقدار ستة أذرع في الارتفاع، وأعمق منها بمقدار أربعة اذرع"،[٩، ص ص ٢٠٢] وهذا وإن دل، فإنما يدل على أن ضخامة القبة كان شيئا يفكر فيه "سنان باشا" ويتحداه للتفوق عليه، إلا أن دراسة تطور أعماله يدل دلالة واضحة على أن الموضوع الرئيسي الذي كان يشغل ذهنه ويحاول الوصول إليه هو تطوير حيز كبير واحد ومسيطر بدون أية عوائق بصرية.[٨] أما في القرن العشرين فقد تطورت طرق الإنشاء وبصفة خاصة في نصفه الثاني تطورا كبيرا كانعكاس طبيعي لما توصل إليه العلم من تقدم في المجالات الحياتية المختلفة، فظهرت الطرق الإنشائية الجديدة والتي أصبحت بإمكانياتها العالية قادرة على تغطية حيز كبير بسقف واحد دون وجود لأي ركائز إنشائية في الحيز، وقد أفرز هذا التطور أشكالا جديدة لم تكن معهودة من قبل، ورغم ما فهمه البعض من ضرورة تحقيق وحدة فراغية متكاملة لحيز المسجد إلا أنهم قد استخدموا طرقا إنشائية أوجدت مشاكل مصاحبة وكأنما كان التوجه في الفكر التصميمي منصبا بشكل أساسي على استخدام الطرق الحديثة دون دراسة واعية لما أوجدته من مشاكل. وعلى سبيل المثال فقد حدث في مسجد الملك عبد الله بن الحسين في عمان بالأردن، أن تم تغطية حيز المسجد بقبة واحدة يبلغ قطرها حوالي ٣٨م وارتفاعها حوالي ٣٢م، ونظرا لعدم تناسق نسبة ارتفاع القبة إلى عرض المسجد، بالإضافة إلى طبيعة المواد المستخدمة فقد ظهرت المشاكل الصوتية عقب تنفيذ الأعمال المعمارية والإنشائية، ومنها اتضح أن المصمم لم يراعي الدراسات الصوتية في الحيز، إلا أنه في المراحل التالية وخصوصا مرحلة التصميم الداخلي فقد تم عمل المعالجات اللازمة لتحسين الأداء الصوتي، ورغم أن النتيجة النهائية كانت ممتازة إلا أنها كانت مكلفة جدا.[١١]

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الساحة المعمارية تشهد توجها لبعض المعماريين نحو عدم تحقيق التوافق بين عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد وبين التطور الإنشائي المعاصر، فمازال البعض يلجأ إلى الطرق الحديثة ولكنه لا يستغني عن هذه الركائز التي تعيق الوحدة الفراغية للحيز بجانب إعاقة رؤية الإمام أثناء الخطبة، بل وفي ظل الخلاف حول الطابع المعماري الذي يجب أن تكون عليه عمارة المساجد في العصر الحديث، نرى بعض الذين أنشئوا حيز داخلي للمسجد يحتوى على نفس مشاكل الركائز التقليدية، وليت الأمر اتجه نحو الاستفادة من هذا التطور في تقليل قطاعات هذه الركائز، ولكنها كانت بنفس هيئتها التقليدية التي كانت عليها (شكل ٨). كما أن البعض يعتقد أن للأعمدة وظائف أخرى داخل حيز المسجد منها - على سبيل المثال - أنه يمكن اتخاذها كنقاط مرجعية لتسوية الصفوف في حين أنه يمكن تحقيق ذلك باستخدام علامات في الفرش سواء كانت الأرضية من الرخام أو السجاد، أو أنها تساعد في عمل ميزانين كمصلى للسيدات في حين أن ذلك يمكن تحقيقه بطرق الإنشاء الحديثة باستخدام نظريات الشد الإنشائية Tensile Structure Theories ودون الحاجة إلى هذه الركائز.



شكل ٨: مسجد السليمان بجدة.

الخلاصة

النتائج

مما سبق أمكن التوصل إلى علاقة بين عناصر التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد وبين الخصائص التي طرحت لتميز العملية التصميمية له (جدول ١)، ومن هذه العلاقة يتضح أن فكر عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد يتسم بخصائص تميز العملية التصميمية للحيز - بعناصره المختلفة - عن أي عملية تصميم أخرى ومن أهم هذه الخصائص:

١- أنه فكر مقيد بضوابط خاصة ولا يترك لانطلاقة الفكر وما يمكن التوصل إليه، كما أن هذه الضوابط مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي، مما يضفي عليها صفة الأفضلية في التطبيق والوجوب في التحقيق. ومن أهم هذه الضوابط، تفضيل بعض الأشكال المعمارية للمسقط الأفقي مثل المستطيل وشبه المنحرف ونصف الدائرة، وكذلك تحديد وضع الحيز بناء على اتجاه القبلة، وتفضيل المداخل الخلفية، والنوافذ التي لا تقع في مستوى نظر المصلين، والبعد عن الزخرفة، والهيئة المعمارية البسيطة (جدول ١).

٢- أنه فكر يتسم بالبساطة في العملية ذاتها وفي الحيز الذي يتم تصميمه ليس في عناصره المستقلة فقط، بل في جميع مكونات هيئته المعمارية. وتتضح هذه البساطة في بساطة البرنامج المعماري، وفي هيئة المسجد المعمارية، وتشكيل عناصره المعمارية، والحليات والزخرفة والواجهات المعمارية (جدول ١).

٣- أنه فكر ذو اتجاه واحد، يعنى بتحقيق الوظيفة أولا، ثم يبحث عن الشكل المعماري المناسب الذي يتواءم معها ويحققها. ومع هذا الاتجاه تبدأ عملية التصميم من الداخل إلى الخارج، كما تتركز على الجوانب الوظيفية والتي يختار لها الهيئة المعمارية التي تغلفها والتي تتسق مع الدعوة للبساطة، سواء للهيئة المعمارية العامة للحيز أو عناصرها المختلفة (جدول ١).

٤- أنه فكر متوافق مع المحددات المحيطة بالمسجد كمبنى. مثل التوافق مع ظروف البيئة، ومع الإمكانيات التقنية الحديثة، والتي يمكنها إيجاد حل أمثل للمشكلات التي ترتبط بطرق البناء التقليدية والتي كانت تستخدم في عمارة المساجد الأولى، وذلك على مستوى عناصر الحيز المعمارية (جدول ١).

جدول ١: العلاقة بين خصائص التفكير في الحيز الداخلي للمسجد وعناصر الحيز المعمارية.

العناصر المعمارية لحيز المسجد	خصائص التفكير في تصميم الحيز الداخلي للمسجد			
	التقييد لا الإطلاق	البساطة لا التعقيد	الوظيفة لا الشكل	التوافق لا التناقض
الوظيفة	***	**	***	–
عناصر البرنامج	**	***	***	–
الموقع العام	***	***	***	***
المسقط الأفقي (ثنائي الأبعاد)	***	***	***	***
المداخل	***	***	**	**
النوافذ	***	**	**	**
السقف	–	**	*	***
الحوائط	**	***	*	*
الأرضيات	**	***	*	*
الحليات والزخرفة	***	***	***	–
الواجهات (ثنائية الأبعاد)	***	***	***	*
الهيئة المعمارية (ثلاثية الأبعاد)	***	***	***	*
المقياس	***	*	–	***
الإنشاء	–	–	**	***
الظروف البيئية المحددة	–	–	–	***
الإضاءة	–	**	–	***
التهوية	–	–	–	***

*** علاقة قوية ** علاقة متوسطة * علاقة ضعيفة – لا توجد علاقة

إشكالية فكر عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي للمسجد المعاصر

وبناء على ما سبق، فإنه يمكننا توضيح إشكالية فكر عملية التصميم المعماري الحالية للحيز الداخلي للمسجد، والتي يمكن تحليلها إلى مجموعة من الإشكاليات الفكرية والمنهجية المتكاملة والمرتبطة بطبيعة الحيز الداخلي للمسجد ووظيفته وبمناهج عملية التصميم المعماري:

١- **إشكالية التوافق مع المتطلبات الشرعية:** وهي تتعلق بالحاجة إلى حيز داخلي للمسجد يحقق المتطلبات الشرعية مثل استحباب إطالة الصفوف الأولى، والتوجيه ناحية القبلة، وعدم تخطي رقاب المصلين، وعدم صرف أبصار المصلين وأذهانهم. وهذا يتطلب من المعماري البحث عن النمط المعماري الملائم لعملية التصميم المعماري والبحث بشكل أساسي في حقيقة التكوين المعماري للأشكال المختلفة وقدرتها على الأداء التصميمي وما يمكن أن تحققه في هذه الجزئية سواء على مستوى المسقط الأفقي أو البعد الثالث.

٢- **إشكالية المدخل التصميمي:** وهي تعني الحاجة إلى حيز داخلي معاصر يحقق الخشوع للمصلي في عبادته. وهذا يتطلب من المعماري تبني المدخل التصميمي الذي يضع اعتبار التصميم طبقا للوظيفة أولا، ثم يختار لها الشكل المعماري الذي يتوافق معها، وكذلك التشكيل المعماري الذي يساعد المصلي على الخشوع في الصلاة. وهنا تتكامل هذه الإشكالية مع الإشكالية السابقة حيث يصبح الهدف من اختيار الشكل المعماري هو تحقيق المتطلبات الشرعية ومساعدة المصلي في الخشوع ليبتعد عن الدنيا، ليس ببصره فقط بل حتى بعقله، وقد تساعد عملية التصميم المعماري على ذلك، كما في فكرة المتتابعة البصرية والفكرية لرحلة المصلي منذ دخوله الحيز وحتى مكان الصلاة والتي سبق الإشارة إليها في جامع ومدرسة السلطان حسن.

٣- **إشكالية التطور المعماري المعاصر:** وهي تتعلق بالحاجة إلى حيز معماري يحقق المتطلبات الشرعية والوظيفية المطلوبة، وكذلك التوافق مع إمكانيات العصر الحديث وما أتاحه التطور المعماري من طرق إنشاء حديثة تساعد في حل وتلافي المشاكل التي صاحبت طرق البناء التقليدية والتي كانت متبعة سابقا. وهذا يتطلب من المعماري قدرة فائقة في اختيار الأسلوب الإنشائي الذي يمكنه التوافق مع الهيئة المعمارية للحيز ويساعد في تحقيق الجوانب المختلفة لعملية التصميم المعماري لحيز المسجد، على ألا يسبب ذلك إيجاد مشاكل مصاحبة للشكل الجديد وإلا فقد التعبير الإنشائي مصداقيته وابتعدت عمارة المسجد عن التطور المعماري الذي هدف في المقام الأول إلى حل مشكلات الإنشاء التقليدية.

٤- **إشكالية البساطة المعمارية:** وهي تعني أن تكون البساطة في عملية التصميم المعماري للحيز الداخلي هدفا مقصودا لذاته على مستوى عملية التصميم ذاتها وعلى مستوى عناصر الحيز الداخلي للمسجد. وهذا يتطلب من المعماري التعامل مع عملية التصميم من هذا المنطلق، فالبساطة مبدأ دعى إليه الإسلام في كل شيئ، ومن الأحرى أن يتحقق هذا المبدأ في مكان مخصص للصلاة وهي عماد الدين.

المراجع

[١] القرآن الكريم.

[٢] قطب، سيد. *في ظلال القرآن*. م٤، ط٢١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م.

[٣] حسن، نوبي محمد. *التفكير الإبداعي في عملية التصميم المعماري*. رسالة دكتوراه، أسيوط: كلية الهندسة، جامعة أسيوط، ١٩٩٧م.

[٤] سابق، السيد. *فقه السنة*. م١، ط١٠، القاهرة: الفتح للإعلام العربي، ١٩٩٣م.

[٥] أبا الخيل، عبد العزيز. "الكتاب والسنة: أساس تأويل عمارة البيت العربي والمسجد". *مجلة البناء*، ع٤٣ ١٩٨٨م، ص ص ١٠ - ١٩.

[٦] منظمة العواصم والمدن الإسلامية. *أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة بالعاصمة القاهرة*. القاهرة: مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، ١٩٩٠م.

[٧] مؤنس، حسين. "المساجد". *سلسلة عالم المعرفة*، ع٣٧، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨١م.

[٨] عبد الفتاح، أحمد كمال. "المسجد في العالم الإسلامي: استعراض للنماذج التاريخية والحديثة للمساجد في العالم الإسلامي". *المجلة المعمارية*، ع٩، ١٠، ١٩٨٨م، ص ٥٤ - ٦٣.

[٩] آبا، أو قطأي أصلان. ترجمة أحمد محمد عيسى. *فنون الترك وعمائرهم*. استنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية أرسيكا، ١٩٨٧م.

[١٠] أبو الأجفان، محمد بن الهادي. "من أحكام عمارة المسجد". *مجلة عالم البناء*، ع٨٥ ١٩٨٧م، ص ص ٣٤ - ٣٧.

[١١] حماد، رزق نمر شعبان، محمد كامل عبد العزيز. "التصميم الصوتي لمسجد الملك عبد الله بن الحسين"، *مجلة دراسات*. م١٦، ع٥، عمان، الأردن ١٩٨٨م، ص ص ٢٤ - ٣٩.

Conceptualization Characteristics in the Interior Design of Mosque

Nobi Mohammad Hassan

Architecture Department, College of Engineering

Asiot University, Asiot, Egypt

Abstract: The design process of any space varies according to their functions. The design process of prayer hall isn't the same for the other process because the design process depends on the creative thinking. The question lies on its simplicity or complexity, direction, co-ordination with the environments and the construction technology. This research is aimed to demonstrate the features of the architectural thinking for designing the prayer hall and make the process obvious to the architects when designing prayer halls. The results of this analytical oriented research are concluding that thinking in the design of prayer halls is different. As it is controlled with some rules, its design problematic is simple, it has one direction where the function is the first, and it is co-ordinates with the environment and the construction technology.